فن

بروفيسور ساسون سوميخ*

بغداد ١٩٥٠

وصلت إلى المدرسة الثانوية اليهودية «شماش» في العام ١٩٤٦. هذه المدرسة واحدة من أفضل مدارس بغداد، كانت تابعة للطائفة اليهودية في المدينة، ولكن موقعها كان غريباً إلى حدّ ما، إذ إن بنايتها أقيمت في منطقة «الحيدرخانة» وهي ليست مأهولة باليهود، مع أن الأحياء اليهودية في المدينة كانت عديدة.

كانت المنطقة تغص بالناس والنشاط البشري، إزاء المدرسة كان مسجد الحيدرخانة الكبير، الذي كان الآذان ينطلق منه عبر مكبر صوت ضخم (وجّه الى المدرسة ما صعّب علينا أحياناً الاصغاء بعضنا الى بعض، أو الى معلمينا). من الطرف الآخر للمدرسة، وعلى مسافة ليست بعيدة، كان سوق الصفافير القديم الذي يضجّ طول الوقت بوقع ضربات رتيبة تصم الآذان، ويقال إن الخليل بن أحمد الفراهيدي اكتشف تفاعيل بحور الشعر العربي عندما قدم من البصرة إلى بغداد، وزار سوق الصفافير. وعلى مسافة مئات الأمتار انتصبت بوابة كبيرة لحارة بيوت الدعارة (الميدان) التي كانت تعمل برخصة من البلدية وتحت حراسة مشددة، ولكنها لم تعدم الاشتباكات، وعمليات الانتقام في داخلها ومن حولها.

وقرب بناية مدرستنا كان مقهى صغير وهادئ، لصاحبه حسن العجمي، الذي زيّن رفوفه بصف طويل من السماورات الفاخرة اللمّاعة، وجدرانه بالسجاد الفارسي الجميل. في هذا المقهى اعتاد الشاعر محمد مهدي الجواهري الجلوس خلال أيام الأسبوع، وكنت أمرّ بجانب المقهى وأنظر باعجاب الى هذا الرجل، وهو منكب على كتابة القصائد، وهو يموسق بشفتيه وزن القصيدة.

في العام ١٩٤٨، قتل جعفر، شقيق الشاعر الجواهري، وكان طالباً في كلية الهندسة، برصاص الشرطة في أثناء الهبة العارمة ضد تجديد الاتفاقية العراقية ـ البريطانية، في مسجد الحيدرخانة أقيم حفل تأبين ضخم لذكراه، ألقى فيه الجواهري قصيدته المشهورة «أخي جعفر»، هذه

* أستاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب.

القصيدة التي تعتبر من الكنوز الأدبية والسياسية في بلاد الرافدين.

في تلك الأيام اشتريت ديوان الجواهري وأخذت بمطالعته، وقد لفتت انتباهي بشكل خاص قصيدته «دجلة في الخريف»، سحرتني ايقاعية القصيدة، ووصف مناظر النهر العظيم الذي شق مدينتي، مع أن لغة القصيدة كانت صعبة ومعقدة، فالجواهري كان فارس الشعر الكلاسيكي الجديد، وأكثر من توظيف التعابير العربية القديمة.

كان معلم اللغة العربية في مدرستنا محمد شرارة، من منطقة مرجعيون في جنوب لبنان، وهو أديب ذاعت شهرته، عندما كان محمد يافعاً أُرسل للدراسة الدينية في مدارس مدينة النجف، احدى المدن الشيعية المقدسة الواقعة في جنوب العراق، ولكن محمد شرارة مثل لبنانيين شيعيين عديدين من أبناء جيله، تأثروا بالعلمانية في المدينة المقدسة، وانجذبوا في نهاية الأمر الى الشيوعية. بقي في العراق لسنوات طويلة وعمل في التدريس والصحافة، الى أن طرد الى لبنان في مطلع الخمسينيات بسبب نشاطه السياسي (توفي في لبنان العام ١٩٧٨).

توجهت الى معلمي محمد شرارة، وطلبت محادثته حول القصيدة (دجلة في الخريف)، وكان صديقاً للشاعر الكبير بسبب خلفيتهما النجفية المشتركة (ولد الجواهري وتعلم في مدينة النجف وانتقل الى بغداد في سنوات العشرين) ـ فاقترح عليّ التوجّه سوياً الى الجواهري في المقهى القريب. صدمتني هذه الدعوة: فهل سأُجالس الشاعر الاسطورة؟ ماذا سأقول له؟ وماذا سيقول والداي إذا عرفا أنني ذهبت لألتقي شخصية «خطيرة» مثل الجواهري؟ في تلك الأيام تعرّض اليساريون العراقيون الى ملاحقات سياسية، وكان على اليهودي الحذر، وتجنب صحبتهم بسبب الحرب في فلسطين في العام ١٩٤٨/٩.

تغلبت على مخاوفي، وذهبت مع معلمي بعد انتهاء اليوم الدراسي، وتوجهنا الى مقهى حسن العجمي، كان الجواهري جالساً وحده يدخن ويشرب الشاي الثقيل. كنت مرتبكاً ومضطرباً، لا أذكر مضمون المحادثة، ولكنني أذكر أننا تطرقنا الى الموضوع اليهودي.

حدثنا الجواهري كيف ألفى نفسه العام ١٩٣٧ سجيناً بسبب تجرؤه على الدفاع عن الفقراء اليهود، فيما يلي القصة:

في العام ١٩٣٦ وقع في العراق انقلاب عسكري بقيادة العقيد بكر صدقي، وأصدر الجواهري صحيفة يومية باسم «الانقلاب» بهدف دعم النظام الجديد، ولكن فيما بعد بدأ يوجّه النقد الى قادة الانقلاب بشكل لم يطب لهم. في تلك الأيام، ودون أية علاقة بالانقلاب، نشب خصام شديد في أوساط الطائفة اليهودية في بغداد (كانت تشكل ربع أو ثلث سكان المدينة) حول ضريبة الذبيح. نشر الجواهري في صحيفته مقالاً أيد فيه اليهود الفقراء الذين طالبوا بتخفيض الضريبة، أما النظام الذي كان يبحث عن مبرر لمعاقبة الجواهري، فقد استغل الفرصة وقدمه للمحاكمة بتهمة «نشر الحزازات الطائفية»، وحكمت عليه المحكمة بالسجن مدة شهرين، عندما كان يقبع في السجن كتب قصيدة ساخرة تحدث فيها عن الصراع الداخلي بين اليهود، واستعمل الكلمتين العبريتين «كاشير» (حلال) و«طاريف» (حرام).

هذا اللقاء مع الجواهري أثار شهيتي الأدبية، نتيجة للمعاملة الحميمة التي أبداها الشاعر نحوي، فانكببت على دراسة الأدب العربي، وخاصة الشعر، وبدأت أتخيل نفسي شاعراً. شجعني معلمي محمد شرارة، واقترح عليّ ترجمة قصائد من الانكليزية الى العربية بهدف نشر الترجمات في احدى الصحف التي كانت له علاقة بها، ثم تجرأت فكتبت قصائد عربية من

ساسون سوميخ

تأليفي، عمودية، ولكن بلغة بسيطة، أحياناً ليست تقليدية، وقد نشرت احدى القصائد وهي بعنوان «سيأتي الخريف» في الملحق الأدبي لصحيفة «الأخبار» البغدادية.

الانشغال بالأدب أصبح يملأ كل عالمي، صرت اتنقل بين المقاهي العديدة في شارع الرشيد، الشارع الرئيس في مدينة بغداد، والتي كان يجلس فيها محبو الأدباء والمتأدبين أبناء الجيل الجديدة، فُتحت أمامي آفاق ثقافية لم أكن أتصور أن أجدها في هذه المقاهي الشعبية. ففي نهاية سنوات الأربعين كانت بغداد تعج بالنشاط الأدبي، وكانت تطمح الى انتزاع زعامة العالم العربي الأدبية (عادة كانت الزعامة للقاهرة وبيروت).

تأثر هؤلاء الشعراء والكتّاب والرسامون والنحاتون، (كلهم في العشرينيات من أعمارهم)، بالرياح الجديدة التي هبت في ثقافة الغرب،

أما أنا فقد كنت آنذاك منقطعاً عمّا كان يحدث في المجتمع (اليهودي). بدأت أنشر بشكل دائم في الصحافة الأدبية، وبالذات في صحيفتي «النديم» و«الأنباء». لم يتحمس محررو الصحف لذكر اسمي اليهودي (رئيس الجالية اليهودية في تلك الأيام كان اسمه «ساسون» الحاخام ساسون خضوري. كان رجلاً مسناً ذا لحية كثة ويرتدي جلباباً كالذي كان يرتديه كبار الحاخامين في الشرق الأوسط، وربما هذا هو «ساسون» الذي ارتسمت هيئته في أذهان القراء عندما كانوا يقرأون اسمي). ولذلك استعملت اسماء مستعارة، لكن في بعض الأحيان نشرت انتاجي الأدبي باسمي الصريح.

بعد الحرب العالمية الثانية، وقاموا بمحاولات أدبية عصرية (وحتى حداثوية) في تجديد الثقافة العربية وانعاشها.

شارك في هذه الأوساط العديد من اليهود، كان من بينهم الكاتب نعيم كطان، وهو يهودي بغدادي ولد في سنوات العشرين، ويعيش اليوم في مدينة مونتريال بكندا، وله اليوم مكانته في الأدب الكندي ـ الفرنسي، ولأنه كان يتقن اللغتين الانكليزية والفرنسية (تخرج من مدرسة «الاليانس» في بغداد) فقد كان يطلع زملاءه الكتاب المسلمين على تجديدات الأدب الفرنسي، وهكذا تعرفوا على أسماء البير كامي، بول ايلوار، ولوي أراغون. عندما وصلت الى هذه المقاهي في نهاية العام ١٩٤٩، ترك نعيم كطان العراق وانتقل مؤقتاً الى باريس. ولكن حتى عندما كان في فرنسا لم ينس زملاءه الكتّاب البغداديين، بفضل جهوده خصصت صحيفة «الفيغارو» الباريسية ملحقاً خاصاً ترجم فيه نماذج من كتابات لشعراء العراق الشباب. في وقت لاحق كتب نعيم كطان سيرة ذاتية مثيرة بعنوان «سلام عليك، يا بابل» تحدث فيها عن ذكرياته في بغداد الأدبية تلك الأيام. (نشر الكتاب في فرنسا العام ١٩٨٧ وترجم الى الانكليزية، وقد ترجم الكتاب مؤخراً الى العربية وصدرت الترجمة العربية عن دار الجمل في المانيا).

في العام ١٩٥٠ تمت عملية تفكيك أقدم مجتمع يهودي، مجتمع يهود بغداد. في العام ١٩٥٠، تمت الهجرة المنظمة، حيث وصل الى البلاد أكثر من ١٢٠ ألف يهودي عراقي، وفي هذه الهجرة اختفت معظم التجمعات اليهودية تماماً من المدن العراقية. بعد نهاية التهجير بقي في بغداد حوالي ستة آلاف يهودي، وحتى هؤلاء تركوا العراق فيما بعد، وقد بقي حتى هذه الأيام بضعة عشرات من اليهود المسنين. عندما أعلن في ذلك العام عن قانون اسقاط الجنسية والذي مكّن اليهود من الهجرة الى البلاد بشكل «قانوني»، أصاب اليهود، بمن فيهم عائلتي، حالة من التمزق والارتباك. كان عليهم أن يقرروا مصيرهم ومستقبلهم بشكل فجائي وخلال وقت قصير. في الأجواء الصعبة التي سادت العراق في تلك الأيام بسبب الهزيمة العربية في المعركة على فلسطين، كان العديد من يهود العراق على استعداد لمواصلة حياتهم في وطنهم الأصل الى أن ينجلي العنف والغضب.

ولكن في أعقاب التطورات السياسية، فقد العديد منهم مصدر رزقهم، بسبب تسريحهم من أعمالهم، أو تشوش حياتهم الاقتصادية. في نهاية الأمر هاجر الجميع بين العام ١٩٥٠ والعام ١٩٥١. كتب التاريخ والمذكرات التي كتبت عن هذه الفترة تصف بتوسع هذه الهجرة الواسعة، حتى وان اختلف الكتّاب حول الأسباب الحقيقية التي دفعت اليهود الى الهجرة.

أما أنا فقد كنت آنذاك منقطعاً عمّا كان يحدث في المجتمع (اليهودي). بدأت أنشر بشكل دائم في الصحافة الأدبية، وبالذات في صحيفتي «النديم» و«الأنباء». لم يتحمس محررو الصحف لذكر اسمي اليهودي (رئيس الجالية اليهودية في تلك الأيام كان اسمه «ساسون» الحاخام ساسون خضوري. كان رجلاً مسناً ذا لحية كثة ويرتدي جلباباً كالذي كان يرتديه كبار الحاخامين في الشرق الأوسط، وربما هذا هو «ساسون» الذي ارتسمت هيئته في أذهان القراء عندما كانوا يقرأون اسمي). ولذلك استعملت اسماء مستعارة، لكن في بعض الأحيان نشرت انتاجي الأدبي باسمي الصريح، ما أثار استغراب بعض أصدقائي، بعض الذين همَّهم أمري حذروني من أن ظهور اسمي في الصحافة في تلك الأيام العاصفة كان من شأنه أن يسبب لي المشاكل لدى السلطات، التي من شأنها أن تعتبرني مثل معظم الكتّاب والمثقفين، انتمي الى المعارضة، فتفسِّر بهذا المفهوم كتاباتي التي كانت تخلو من السياسة. إنها كتابة رمزية تكشف القليل وتستر على الكثير في الحقيقة، كتبت قصيدة غزلية قصيرة بعنوان «منتصرة» مهداة الى فتاة يبدأ اسمها بحرف الألف، فُسِّرت على أنها تمجد اسرائيل وجيشها الذي انتصر على العرب، وبأعجوبة انتهت هذه القضية «على خير». أما بالنسبة لي، فإن اسرائيل وصراعاتها لم تكن في مركز وجداني في ذلك الوقت، ولم أتابع الأخبار القادمة من فلسطين، أما الكتّاب الذين التقيتهم في بغداد، فقد كان بعضهم رواد الحداثة في الشعر العربي، وفي وقت لاحق اعتبروا كبار الشعراء العرب بعد جيل الجواهري. أبرز هؤلاء كان الشاعر بدر شاكر السياب (١٩٢٧ – ١٩٦٤)

الذي ولد في قرية صغيرة اسمها جيكور بالقرب من البصرة. في منتصف سنوات الأربعين وصل السياب الى العاصمة، بغداد، للدراسة في كلية المعلمين، وكانت بمثابة كلية للاداب في ظل غياب جامعة حقيقية في المدينة. في بغداد «تورط» السياب بعلاقات غرامية متعثرة، كذلك إنشدّ الى النشاط السياسي في أوساط اليسار، الأمر الذي عرّضه الى ملاحقات عديدة. فيما بعد غيّر الشاعر مواقفه السياسية وأصبح معادياً للشيوعية. في أواخر سنوات الخمسين كتب سلسلة مقالات اتهم فيها الشيوعيين العراقيين بالانجرار وراء رفاق الحزب اليهود، الذين كانوا، حسب رأيه، صهاينة مبطنين، في مذكراته كشف عن علاقته بفتاة يهودية شيوعية، يافعة وجميلة واسمها مادلين، واتفق معها على موعد لاغرائها، ولكنها لم تصل لأن الشرطة اعتقلتها، وحكمت عليها المحكمة بالسجن مدة طويلة بتهمة الانتماء الى التنظيم السري الشيوعي.

عرف السياب شاعراً موهوباً عندما كان طالباً في الكلية، وفي مطلع العام ١٩٥٠ (أو نهاية ١٩٤٩) نشرت مجموعته الثانية «أساطير»، هذه المجموعة أرهصت لثورة كبيرة في الشعر العربي المعاصر، ليس فقط بسبب موهبته الجبارة ولغته الشعرية الخاصة، بل فوق كل ذلك، بسبب التجديد في مبنى القصيدة العربية وأوزانها.

تجديدات السياب (والشاعرة البغدادية نازك الملائكة التي نشطت في تلك الفترة) تتلخص بتبسيط بحور الشعر التقليدي التي تحكمت بالشعر العربي خلال فترة ١٥٠٠ سنة متواصلة.

في «أساطير» وجد السياب حلاً سهلاً لتخليص الشعراء من مبنى «القصيدة» المرهق والمعقد، وفي الوقت ذاته، لا يتخلى عن الرتابة التي ميزت القصيدة العربية القديمة. هذا التجديد الذي أثار استنكار الأوساط الأدبية العربية في البداية، استقبل فيما بعد لدى جيل الشعراء الصاعدين في جميع بلدان العالم العربي. في سنوات الستين والسبعين أصبح هذا الشكل المسمى «الشعر الحر»، الشكل الشعري السائد.

كان السياب قصير القامة، وملامح وجهه تكاد تكون الى القبح أشبه، ولكن عظمة موهبته فرضت من حوله أجواء من الابداع الكبير، في ذلك الوقت كان يعمل في البصرة، وفي العام ١٩٤٩ وصل الى بغداد للاشراف على اصدار مجموعته «أساطير». طبعت المجموعة في مطبعة قديمة في النجف اسمها «مطبعة العربي»، وبعد فترة قصيرة من تعرفي عليه، وصل في أحد الأيام الى المقهى يحمل «بروفات» المجموعة. تناولت صفحاتها وبدأت بمطالعتها، فاكتشفت بعض الأخطاء المطبعية التي غابت عن ناظري الشاعر، فاشرت اليها لتصحيحها، وقبل ملاحظاتي شاكراً وباسماً. بعد أسابيع قليلة أرسل اليّ، بواسطة صديق قدم من البصرة، نسخة مطبوعة، ووجدت انه صحح الأخطاء التي أشرت اليها، شعرت باعتزاز كبير وكأنني بمجرد تصحيح الأخطاء المطبعية، قد أسهمت في تجديد الأدب العربي بكامله!.

صدر حديثاً

الفلسطينيون
صيرورة شعب

منشورات المركز الفلسطيني للدراسات
الإسرائيلية (مدار)